

مقدمة "همسات من وحي المكان"

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الصادق الأمين؛ نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين..

عزيزي القارئ: تحية لك من خلف القُضبان، أستهلُّ بها مقدمتي، همسات من وحي المكان هي لوحاتٌ تعبّر عن واقع السّجن بالعموم، وعن تجربتي التي تشبه الكثيرين من حولي، وعن أحداثٍ وقعت خارج الأسوار، وعن أيّ عنوانٍ أتركُ لك أيُّها القارئ الكريم حريّة اختياره؛ بما يتناسب مع شعورك وتفاعلك مع مضمونه، هذه اللوحات رُسمت بطلاء الكلمات، إيطارها القُضبان والسيّاح، لكنّها ستحلّق بعيداً بجناح قلبك، وفي سماء فكرك، أرجو أن تشاهدها بعيون الخيال؛ لأنها نُقِشت على شاطئ هذا البحر، ولم تستطع أمواجه العاتية محوها.

جزء من الهمسات هو دعوة لك صديقي القارئ للتعرف على واقع الحياة داخل السّجن، والنظام الذي تسيّر عليه، عبّر هذه الهمسات ستعيش شعور سُكّان المكان، ستشاركهم تجربة خالدة نقشتها همسات جدرانها، وظلال الوجوه في لوحة الذاكرة، وانطفاء الحياة ثم اشتعالها على وترٍ من حنين، ستقرأ الهمسات، وتنتقل إلى كتابٍ آخر، لكنّ شيئاً منها سيظلُّ عالماً بك.

ولا يفوتني أن أنبهك يا صديقي أنني على أتم الاستعداد لقبول مقترحاتك وتنبهاتك إن وقع خطأ هنا أو هناك، فكلُّنا بشرٌ، والعصمة لله عزّ وجلّ ولرسوله (صلى الله عليه وسلّم).

وفي الختام؛ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يهبني الإخلاص في أعمالي؛ صغيرها وكبيرها، وأن يتقبّل مني.

وأخّر دعواتي أن الحمد لله رب العالمين.

أخوكم/

رائد صالح أبو حمدية

الجمعة ٢٠/١٠/٢٠١٧م

خواطر أسيرة

عندما يعجزُ الجسدُ عن الفعل؛ تتفجرُ الكلماتُ في فضاءِ العقلِ باحثةً عن رقعةٍ ترسو عليها.

١. مُخِيلَتِي

هي عالمي الذي أهرب إليه في محنتي، وعبرها أغادرُ سجنِي متى أشاءُ إلى هذا العالم الذي أنا فيه لا شيء، وكلُّ شيء، أنا فيه الحرُّ والأسير، الحاكمُ والمحكوم، عالمٌ يسوده الجنون، حيث اللامنطق، لكنَّه في نفس الوقتٍ ممتعٌ، ففيه أتمرّدُ على سجانِي، وأحقّقُ كلَّ الأمانِي، هي منفذي الوحيدِ إلى بحر الحياة.. مخيلتي.

٢. أُمِّي

إلى التي انحنى ظهرها، واشتعلَ رأسها شيباً وهي تسير خلف خطى سيرِي، متنقلاً من سجنٍ إلى سجنٍ؛ حتى أصبحت قدماها لا تقوى على حملها، دون كللٍ أو مللٍ، فعلى الدوام تُمطرُنِي الرّضا.

إليك أخطُ كلماتِ اشتياقي بحبرِ الدمع، فأنا كلّما تناولتُ ريشتي من دواة الصّبر لأترجم بها مشاعري؛ قطر منها الدّمعُ دون استئذاني، فبللَ أوراقِي التي لا تخشى البلل بعد غرقها في بحر الحزن على الفراق والبعد عنك.

إلى التي من أجلها أرغبُ في العودة إلى الدنيا بعد أن غادرتُها غيرَ آبهٍ بها، كنوزُ الأرضِ عندي لا تساوي ثانيةً تحتضنيني فيها.

قلبٌ رحيمٌ على من قسى، وابتسامَةٌ تشفي العليل من خلف صمت الزجاج، ترتسمُ على محياك عند كلِّ لقاء.

ما زلت أذكرُ ذلك الحلمَ الذي افتقدتُك فيه، وكم كانت فرحتي حين استيقاظي، ولم أعد إلى ذاتي إلا بعد اكتحالِ عيني برؤياكِ أمامي خلف شبّاك الزيارة، ذلك الحاجز بين الموت والحياة.

فقدانك حتى في أضغاث الأحلام أربعني، أضربُ عن النَّوم حين تغيبينَّ فيه عني، فداك الروح يا
خنسائي، يا كلَّ عالمي.

كلما تقدَّم الزمانُ تصاعدَ هاجسُ الفقدان، حتى أوصلني إلى الهذيان.

الآن وأنا أخطُّ هذه الكلمات هبَّتْ نسمةٌ بعثرتُ أوراقِي، فهمتُ منها وكأنَّها ترفضُ هذا الحزن، ولا
عجب، فأنا مثلها تمامًا أرفضه، لكن رغبًا عني أخط حزني، فليس باستطاعتي خداع نفسي، ولو
قويتُ على ذلك فلن تخرج كلمة فرحٍ إلا وهي ترتدي ثيابَ الحزن أيضًا.

لملمتُ أوراقِي المعترضة، ومعها نفسي المبعثرة، وعدتُ إلى حيثُ انتهيتُ وأكملت:

أمي يا مدرسةً في التضحية، وأغنيةً كتبت كلماتها بحبرِ العطرِ ولحنِ الحنان، إليك عهدًا على
نفسي أقطعُه، هو البقاء عند قدميكِ خادمًا مطيعًا كما أمر الإله ما دمت حيا، فمتى أقبلَ قدميكِ،
وأمسحهما بماء ورق الزيتون والليمون، وأدقنَّهما حبًّا عوضًا عن كل المسافات التي قطعتهما
سنواتٍ ولم تملَّ أبدًا.

٣. كيان

تخيَّلُ أيُّها الإنسان ميزانًا فيه الكون في كفةٍ، وعالم أسير في كفةٍ، منذ كذا وكذا وأنا أنا،
أنا واقفٌ والكونُ من حولي يسير، تمرُّ عليَّ السنين غير آبهةٍ بي، كأنَّها تمر على فراغٍ،
يا أيتها السنين، ألم تعلمي أن الفراغ هو جزءٌ من كيانِي! تمتد منه فروعِي امتدادَ الشَّرْقِ
والغرب وبالعكس، لكنها لا تجاوزُ سجنِي، أشعرُ كأنِّي نصفُ الكون، وهذا الشُّعور نابعٌ
من كوني مركزَ كوني! إن لم تصدَّقوني اسألوا الميزانَ عني، فيه كوئُكم مقابل كوني!
وبرغم هذا أعترف، واقعي غير واقِعكم، وعالمي غير عالمِكُم، أنا أعيش في قفصٍ هو
كلُّ كيانِي، وكيانُكم هو كل ما تبقى من الكون، أنظرُ إليه من بيتِ تضاريس سِياح
سجنِي، ولا أرى منه سوى فضاء كوني الضيق المتسع.

٤. حال الأسرى مع الدنيا

من أهلها ولسنا منها، أمواتٌ نعيش فيها على فتاتٍ فتاتها، لا نلتقي بأهلها إلا بأهلنا، ولا نأكلُ من الأشياءِ إلا أسماءها، نعيشُ حالةَ الحشرِ قبل البعثِ على طريققتها، فرادى أو أشناتاً نُبعث منها إليها، فمن بعد رميم أحبابنا..
هذا حالنا مع الدنيا.. نعيش حالةَ البزخ فيها بين دنيا ودنيا.

٥. حصار الحصار

يا عروساً تكالبتُ عليها كلُّ زناةِ العصرِ للنيلِ منها، أبت الخنوعَ والركوعَ، واقفةً تدافعُ عن شرفها وشرف أمها، عرضوا عليها المغرياتِ، يراودونها عن نفسها، رفضت شامخةً تأبى التنازُلَ عن عفتها، قالوا ساوموها على لقمة عيشها، فأعلنت الصيام، وقالت: لباطنُ الأرضِ خيرٌ من ظاهرها، قالوا إذاً فحاصروها حتى استسلامها، فحاصرتهم هي بصمودها، إذا سألتم عن اسمها، فابحثوا عن العزةِ بينَ الأسماءِ كلِّها، ستجدون غزاة...
اسماً لعروستنا.

٦. عند اكتمال القمر

الصحراءُ لوَبرِها، والبحارُ لراكبيها، ويسهر العشاقُ على ضيائه يتبادلون كلماتِ العشق والغزل، يتأملون جماله من على مقاعد الحدائق في الهواء الطلق، ومن على شرفات البيوت، ومن جميع الأماكن الحرة من حولي في هذا العالم، وفي عالم الأدب ينقش الشعراءُ أبياتهم على صخورهِ، ويتغنَّون بوصفهِ، وهو للروائيين مصدرُ الإلهام.

٧. محبوبتي

محبوبتي... بحثتُ في عيون الناس عنك فلم أجدك؛ لأنك كنتِ تسكنين قلبي، أسيرةً وما زلت، يوم تحررك لن يكون إلا يومَ وقوف قلبي، محبوبتي... فلسطين.

٨. أرض العزة

على رمالها المرويّة بدماء الشهداء، لا من بكاء السماء؛ يمشي المرء بعزّة.
بحرّها مده كرامةً، وجزره حريةً، في سمائها تحلّق صواريخ العز القساميّة، الواحد منها
يساوي الترسانة العربيّة، أهلها لا يسبقهم إلا من هم أكثر صلابةً وتضحيةً، مجاهدوها
بشجاعتهم يشهدُ عدوهم، طلائعُ فخرٍ ونصرٍ للأمة الإسلاميّة، تحمل في باطنها متاهاتِ
الموت لأعدائها، كلما غزوها حسبوها نزهةً فكان الانهزام، بوحل غزّة مرّغت أنوف
الصهاينة.

إيه يا غزّة؛ لو كان دمي حبراً لقلّمي لنفذ قبل أن أضع آخرَ حروف ما تستحقين على
ورقي، لذلك سأختم بالقول:

أنتِ جزيرةُ الشرفِ الوحيدةُ في بحر الخيانة.

٩. ومضات من المحنة

يا سائلي عن السّجن، عن حالي، عن يومي كيف أقضيه، عن صبري، قهرُ الرّجل هو
العنوان، وإليك بعض الوصف: حثالةُ العالم تحكّم شعبي، وحثالةُ الحثالة حُرّاس سجنِي.
جُل من يدخلون السّجن في ربيع العمر، زهرةُ شبابهم تُقطف أمام أعينهم، كأوراق
الخريف تتساقطُ الأعمار، تاركةً خلفها أجساداً عاريةً إلا من بعض أوراق الشباب!
من يمرض منا يعيش على المسكّنات في غالب الأحيان، وليس له شفاءٌ سوى الله بعد
الأخذ بالأسباب.

نعيشُ في كوكب ساكنوه بلا لباس! لا عجب، فنصف الدين ممنوع من الكمال! ولذلك
مخالفٌ لفطرة الإنسان.

أربعٌ وعشرون ساعة هي مواعيد زيارتي "تفتيشاتي"، إذا كنتُ مستعدّاً لها أم لا، جالساً أم
نائماً، أم أتناولُ الطعام أم في الحمام، لا يأبه لأيّ منها سجانِي حين يريد أن يقطع
خلوتي.

أربعٌ وعشرون ساعة لا أمانَ لا اطمئنّان، وفي بعض المواقف شعورٌ بالخوف، نعم؛ فأنا
إنسانٌ تنطبقُ عليه قوانينُ الفطرة، مهما علا شأنِي في قومي، لكنني سرعان ما أتغلب
على خوْفِي، وأقهره مع السجان.

تأتينا مواسم نشناق فيها، بل نلحم فيها بقطعة خبر، إلى نسمةٍ تحملُ معها رائحةً تذكرنا
بأدميتنا، ففي هذا الموسم نعيش حالةً التحنيط البطيء، تقترب فيه أشكالنا من المومياء،
يا سائلي عن هذا الموسم، إنه الإضرابُ عن الطعام.

هل عشت يوماً أو اثنين بلا طعام؟ فنحن عشنا أياماً وأسابيع أصبحنا فيها بلياقة
الثعبان من كثرة الالتواء.

الناس تموت في الحياة مرةً، والواحد منا يموت ألف مرةٍ ومرةً كلَّ يوم.
يا حاسدي على معاشي وأنت قليل من الناس، بعد أن علمت شيئاً عابراً عن عالمي،
هل تساوي لحظةً حرية كلِّ المال؟!!

١٠. طيفي

سارت بي مركبة فضاء العقل إليه دون موعد للقاء... كالعادة.
بسرعة الضوء حطت بي على شاطئه، خلعتُ حذائي، ورحت أمشي عاري القدمين على
رملهِ الحريري، دغدغت حبات الرملِ قدمي، فشعرتُ بتيارٍ يخترقني من أخمص قدمي
حتى أعلى رأسي.
أغمضتُ عيني، ورفعتُ الأذرع بمستوى الأكتاف حاضناً البحر، أستنشق هواءه بقوة
حتى كدت أخنقه ويخنقني، حينها عشتُ نشوة اللقاء.

جلست قبالته على صخرة صماء أتأمله ويتأملني، أخاطبه بنظراتي، ولسانٍ خلع يردُّ عليَّ
بتشوقٍ لانضمامي.

تسربتُ إلى داخله حتى لم يعد يظهر مني سوى رأسٍ يلطمه الموج بمحبةٍ معاتباً على
الغياب.

عجباً أيها البحر، كل أنهار الشوق تصبُّ فيك ولم تمتلئ بعد!
تعاقبني؟! كيف لو علمت أنني ما زلت في الأسر، وأنت لا تضم في أحضانك سوى
طيفي!

بالأمس أرسلته إلى البحر في عطلةٍ من القهر، وها أنا اليوم أرسله إلى البيت في اشتياقٍ

للماضي الذي يذكّرني بنشأتي الأولى في العالم الحرّ، وقف طيفي على مدخل باب الماضي، وطلب الإذن بالدخول، فهو الآن غريبُ الدار، فتح له الحنين، وعانقه بحرارةٍ أدابت فراقَ السنين، مشى بعدها كالطُفل في خطاه الأولى، يتكىءُ على جدران البيت، يتحسّسها، فوجدها قد تآكلت بعض الشيء، ليس بالأمر العجيب، فأبواب سجني هرمت، وبدأت تتساقط أوراق الخريف وهي من الحبيب.

ترك ضيفي الجدران وانساب كالماء على تراب الحديقة المحيطة بالمنزل، وأخذ يشتم رائحته ويقبله حتى تكوّنت منه سحابةٌ من الانفعال، هطلت منها زخات روى بها التراب الجاف، وقف وهو يزيلُ آثارَ الإعصار، دار حول نفسه ببطءٍ دورةً كاملةً، تأمل خلالها محبوبات أمي، وروداً كنتُ شاهداً على ميلادها، وعجوزاً تحمل التوت لم أتوقف عن مداعبتها في صباها وسرقة توتها.

توجهت بعد أن طفئت بطيفي حول البيت، وسلّمتُ على الشجر والحجر نحو الداخل، ارتدت خطاي الخوف والحذر تحسباً من أن يشعر بي أحدُ فتنور المشاعر الوهمية، فيكفي ما عاناها والدي منها في محطات عديدة!

أمي، أول ما أبحث عنه في بيت الذاكرة هو أمي، فليعذرنى الجميع، مقاومة المشاعر وخلاف السنة فوق قدرتي، إنها هي، لا؛ هذه عجوز، ووالدتك في أشدها، خاطبني أنا قبل عشرين عاماً.

لكنني أشعر بالأمومة تتبعث منها، لا يمكن أن يُخطئ المرء مهده، هذه مشتعلة الرأس، ترك الزمان على وجهها آثاره.

اقتربتُ منها أكثر، إنها هي، تصنع الطعام لوالدي الذي مررت به يجلس على الأريكة، يتابع الأخبار على التلفاز، ربما ينتظرُ خبراً يحمل معه بشرى تحرري، تساءلتُ في نفسي.

أمي بدون حجاب، على طبيعتها، مشهدٌ خارج عن النَّصِّ من فيلمٍ طويل، لا يحتوي إلا على مشهدٍ تجلس فيه أمي قبالي مع من حضر من الرجال لزيارتي على كرسيّ يابى الترحيح قيد

أنملة، كم أنا في اشتياقٍ لرؤياكٍ وتقبيل يديك، كم أحسد الأشياء التي تلامسها أناملُك، كم أشعر بالعجزِ أمام تضحياتك، أيُّ فعل في هذه الدنيا بالإمكان صنعُه لقاءً يومٍ من معاناتكٍ معي، أشيروا عليَّ يا كلَّ حكماء الأرض.

إخوتي... ما لي لا أرى أحدًا منهم؟ إلى أين غادر الجميع؟! إلى سجونٍ قضبانٍ أفاصها صقلت من الذهب؟ أجابتنى سنون الغياب، ما بي كلما طرقت بابًا للذاكرة رد عليَّ صدى فراغها، كل شيء قد تغير ما عدا الجدران والصور، فأغادر عائداً من صور الماضي إلى جدران سجنى الواقعي.

١١. الأسير والبحر

لا أكاد أسمعُ أسيرًا في المحيط عبر التلفاز، وحتى في الروايات، يتحدث عن الحرية إلا ويذكرُ البحر.

أمنيةُ الذهاب إليه بعد التَّحرر تعنني دومًا سلّم الأولويات، أهو المعشوق للقادة دائمًا؟ تحدث النفس.

أم هو الاشتياق إلى من يعبر عن الفضاء الواسع بعد الشبك الأسر؟ ما لي أرى ارتباطًا لا يكاد يفكُّ بين الأسير والبحر.

١٢. كلمات

ما أجملها عندما تخرج من داخلنا بتلقائيتها، تلك التي يشعر المرء عند سماعها أو قراءتها بعدم تكلف صاحبها، وتضعه في قالبٍ أدبيٍّ صقلته أذرع "أخطبوط بشري"، يتألف من البلاغة والتعبير.

ما أجمل اللعب معها، والتلاعب بها كما يتلاعب المهزج بدماه، يضحكها أحياناً، ويبكيها أخرى، وفي حالة الإبداع أنت تعبر عن موقف، والأهم من ذلك أن لا تكون كالنقش على الماء، فيكون لها رصييدٌ في بنك الواقع.

يا أيها الإنسان؛ احرص على صدقها وعدم تشويه جمالها الفطري، ولا تتعامل معها باستهانة، فربّ واحدةٍ منها لا تلقي لها بالاً...

وأتمنى أن أدرك ما أكتب

"فليس كلُّ ما يكتبه المرء يُدرّكه، تأتي الأقلام بما لا تشتهي المقاصد... أحياناً"

(هي ردة فعلٍ أدبية على رواية فوضى الحواس للكاتبة أحلام مستغانمي)

١٣. عندما بكت الرجال

كتبتُ في أعقاب صفةٍ وفاء الأحرار جاء النَّبأ العظيم بعد طولِ سنين، ظهر النورُ لأبي النور عند نهاية النَّفق، ولاح في الأفقِ ظلامٌ بعيدٌ لواحدٍ من جديد، إنها لحظة الحقيقة، تبيض فيها وجوه، وتسودُ أخرى، وقف أصحابُ القبورِ أمام قبورهم يرقبون صحفًا متطايرة، كتب عليها بعثٌ من جديد، حظي من حظي بها، ورجع الباقيون جثثًا هامدةً، تسبح ربه "لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا ظالمين، ربنا إن لم يكن بك غضبٌ علينا فلا نبالي.

ربنا منا من ظلم ومنا من قهر، ربنا لا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، حينها بكت الرجال، وعندما تبكي الرجال، تبكي دمًا من قلوبها لا من عيونها، حينها سال دمعُ الدم على خدي القلب محدثًا خطوطاً يملأها القهر والألم، ينبض من أسفلها قلبٌ برقةٍ في نفس الزمن، مودعًا بها أصحابًا كانوا رفاقَ الدرب والمحنة، مخاطبًا إياه بل مطالبًا، اتركونا بهدوء، لكن لا تتركونا إلى الأبد، فوالله قد مللنا هذا السبات ونريد للحاق، اتركونا بسلام، ولا تسلموا علينا سلام دار قومٍ مؤمنين! أذكركم إنَّ الذكرى تنفع المؤمنين.

١٤. ثبات

شبّ في الجبال، وله من شيم الرجال، لكنّه شخّ في هذا الزمان، أصبحنا نرى أقوامًا يولدون شامخين كالجبال، وينتهي بهم الزمان في القاع كالوديان، كيف يطيب للمرء منا الدنو بعد أن ذاق طعم معانقة السماء؟! أم هي شماعة النسيان؟ إن كان لذلك تذكّر أنك كنت يومًا بطلاً في ميادين الجهاد، والأسمى جندياً من جنود الرحمن، قلبك بين أصابعه فاسأله الثبات.

١٥. بمحض إرادتي

سألني يوماً أحدهم عن حالي، صابراً والحمد لله كان جوابي.
قال رغماً عنك وهل لك إلا أن تصبر وتعاني.
قلت عجباً وهل منا من رغماً عنه سلك ميادين الجهاد؟!
وهل أوصلني إلى صبري سوى إرادتي؟!
فلما سلكتُ الدرب كنتُ أعلمُ أن المقابرَ والسجونَ جناحانَ لطائرٍ يحملُ مصيري، إذا حرّ أنا، حتى عند سجاني.

١٦. قلّمي

صديقي الصدوق، يرافقتني في كلّ الظروف كظلي، لكنه بخلافه لا يختفي في الظلمة، إنّما جعل لينيرها. تمرّ لحظات، وأحياناً تمتدّ إلى أيامٍ أو أكثر، يجافيني فيها، أتوسل إليه، كفاك جفى، دونك أنا لستُ سوى واحدٍ من كذا، أرجوك لا تفضحني، فهناك من ينتظر أدبي أو قلته!
لا أدري فمن ناحيتي أنا أنظرُ إليك، كالطفلٍ في عين أمّه، إذا أطلت الجفا يا هوى قلبي، ستنازعني فيك كتبي، حينها أنتَ المسؤول يا قلّمي.

١٧. من أوتي الحكمة

ليس من الذكاء بمكان أن يعلم الإنسان أن هناك موتاً بعد هذه الحياة، إنّما الحكمة أن يدرك بعمله هذه الحقيقة.

١٨. الشفق الأحمر

يتيم الدنيا، أفق خلف بابٍ صُفِّل من حديدٍ، أراقب طفلاً يحتضنه والده، إنه الليل،
أوشكت أمُّه شمسُ النهار على المَغيب، مشهدٌ جميلٌ يصحبه صوت زقزقة العصافير،
وصوت قرع الحديد، والسجان يضعُ الأقفال على الأبوابِ، رغم أنف سجاني أجتاز
أسواري، وأشارك مشاهدة الملايين مساء كلِّ يومٍ جديد.

١٩. عند المغيب

عندما يحلُّ المغيبُ وتبدأ شمسُ النهار بالرحيل، ذلك يعني أنه آنَ أوان المغيب، ليس
لأننا دجاجٌ يبيض، ولكن هذه هي قوانين سجننا البغيض.
الكلُّ يسكنُ داخل مسكنه حرًّا، الجميع يمنع من الإزعاج أو الضجيج.

٢٠. في بطن الحوت

أخبرني أحدهم بشيءٍ من الأسى يظهرُ على وجهه، أن هناك جمعيةً وضعت مشكورةً
اسمَ كلِّ أسيرٍ وقضيئته في زجاجة، ورمتها في البحر، على الفور بدأتُ أتخيلني برفقة
قضيئتي في بطن حوتٍ ابتلعني، بعد أن حسبني جزءًا من طعامه اليومي، أيقظني من
شروود خاطري ألمٌ واقعي الذي يذكرني بالحوت الذي ما زلت أتقلبُ داخله سنين وسنين،
أنتظر لحظة لفظي، فإذا بي أوضع في... بهدف نسياني، عذراً قصدي إنساني!!!

٢١. القهر

القهر، تقالُ في بعض المواقف، أما في السَّجن نعيش حروفَ القهرِ بتفاصيلها، القاف
قوانينُ تقيِّدنا، والهاء همومٌ نعيشها على مدار حياتنا، أما الراءُ رغماً عنا نفعل ما لا
يوافقنا ولا يفارقنا.

٢٢. الأمل

الأمل والأكسجين جناحان للأسير، فقدان أحدهما يعني نهاية التَّحليق في هذا الكون،
لولا إيماننا برئنا ثم الأمل بفرجةٍ لأصبح السجينُ منا ريشةً في مهب الريح، أو كالذي
يسيرُ في الصحراءِ بليلةٍ غير حمراء، ولما انتظر البعض احتراق سنين عمره أمامه
كالشمعة دون أن يصنع حدًّا لهذا الاحتراق!

٢٣. مضرب عن الطعام يخاطب شعوره لكي يرجعه إلى الأيام الخوالي

يا أيها الشعور لَدِيَّ طلب، بل رجاء، أليس بالإمكان العودة إلى حقبةٍ من الزَّمن لكي أعيش واقعي الإنسان! أنا لا أطلب شيئاً من الخيال، بل أطلب كلَّ الخيال، لعلي أنسى ألمي برهةً من الزمن

٢٤. قراءة الأدب

ترسلُ حروفُ علوم الدنيا إلى العقول عبرَ العيون، ولا عيونَ لقراءة الشعر والأدب، إنما بالإحساس والشعور تقلَّب في القلوب صفحات الشعر والأدب، على الأقل هذا ما لدي ثبت.

٢٥. قيمة الأشياء

الناس تدمن على متعة الأشياء، ونحن معشر الأسرى نعيش حالة الإدمان على الحرمان. لذلك نشعر بقيمة ما تيسير لنا من فتات الدنيا، لكن ليس كالشعور بما نفقد، فمعاناة فقدان الأشياء في السَّجن علمتني أنَّ قيمة الأشياء تدرك حقيقةً عند فقدانها، لا عند امتلاكها.

٢٦. زهرة العمر

العشرينيات والثلاثينيات جميعها في السَّجن والحمد لله، في زهرة العمر يبدأ الإنسان تنفيذ أحلامه وطموحاته، وأنا عشتها من ألفها إلى يائها وأنا أحلمُ وأحلمُ ثم أحلم، حتى نفذت أحلامي، وحوصرت طموحاتي داخل جدران سجنني. وها أنا اليوم أقف على أبواب الخريف، لعله يكون أفضل من الربيع في انقلابٍ للموازن. اللهم خذ من أعمارنا حتى ترضى.

٢٧. وقوف الزمن

لم أنس تلك اللحظة التي توقَّفت فيها الزمن وأنا في أوج انطلاقتي بهذه الحياة، وتوقَّفت معه نموِّي الطبيعي، وأصبحتُ أعيش على الحبل السريِّ للحياة، لا أشارك الأحياء إلا بما يُبقي على الحياة.

انتظرتُ تسعة أشهر، تسعين ومثلهم وأنا على هذه الحال، أنتظر تاريخًا لوضعي!

٢٨. نهاية الأشياء

بدأت الأشياء والأحداث من حولي تتسابق فيما بينها نحو نهاياتها. هل هي الإرهاصات التي تسبق البدايات الجديدة، أم هو مجرد شعورٍ نابع من مدى اختتافي من واقعي الذي بتُّ فيه كالغريب عنه. أم هي الأشياء أرادت أن تخلق من حولي هذا الشعور، تعاطفًا وتضامنًا منها... أتساءل.

٢٩. عالم الصغائر

عالمي هو عالم الصغائر، أعيشها بتفاصيلها، لا لأنني أصبحت قزمًا يرى الأشياء من حوله تتفوق عليه، ولكن رغبًا عني، فأنا في هذا العالم مسيرٌ لا مخيرٌ، يلومنا البعض على تفاهة ما نختلف عليه، مقياسهم ما بقي في الذهن من منطق الدنيا عالقًا، ألم يسمعو بفتوى الشافعي ما بين العراق ومصر أشياء وأشياء تتبدل، وما بين دنيا ودنيا عالمٌ بأسره يا زائري في السجُن لأشهرٍ حتى ولو امتدت لعالم أو اثنين، ارحمني من فتاويك التي لا تجاوز بعد مدَّ القدم، عُصْ ولا تبقى على الماء تطفو، من أراد اكتشاف البحر رمى بشباكِهِ في الأعماق، وكم من الخفايا لا يعلمها إلا الباري، ثم من عاش سنين وسنين في بطنِ الحوت.

٣٠. صاحب القبعة الخضراء

صاحبنا يرتدي قبعةً خضراء من صنع يده، ونظراتٌ سوداء من صنع مخيلته! يرى العالم من خلالها، لا ألوانَ في حياته إلا الأسود! لا أملَ ولا تفاؤلَ في قاموسه! قلتُ له تحرّر من العوم في بحر الظلام، فمهما كنتَ تجيدُ السباحة، مصيرك الهلاك. انظر إلى نفسك ولتكن في حياتك بقعةً من ضوء، كما هو الحال مع القبعة الخضراء التي تعتلي سوادَ قلبك ورأسك. صاحبنا عنيد لكنه صدق إذ قال ووعدَ بالتغيير.

في صباح اليوم التالي نظرتُ إليه فإذا به استبدلَ القُبعةَ الخضراءَ بواحدة سوداء، فيا
للتغيير!

٣١. كَفَرًا بِالْعَشِيرِ

من أينَ أبدأُ تدوينَ ألمي، من سخطي عليه أم من على نفسي، أنا في حيرةٍ من أمري، أم
من تلك الأمواج التي لم يعد منها إلا أسوأها، لم يراعِ الحسنات اللائي يُذهبنَ السيئات،
واختار من أطباع النساء كَفَرًا بالعشير واعتمدها، تحملته دهرًا، وعند أولى زلاتي حكم
كَفَرًا ورحل، عبدٌ هو؛ لأن الحرَّ من راعى ودادَ لحظة.

٣٢. انهيار الجدران

ها قد اقترب جدار الثامن عشر من سجنِي؛ لينهار أمامي، وأنا ما زلت واقفًا أمامي،
أنتظر الجدار التالي في اختبارٍ لصبري وإيماني.
مع كل اختبارٍ أجدُّ العهدَ مع الله، وأسأله العافيةَ فيما هو آتٍ، دون أن ينتقص ذلك ذرَّةً
من ثباتي وإيماني.

٣٣. عشرون عامًا من العزلة

عشرون عامًا في محطة النسيان، جلستُ أنتظر قطار الحياة الذي أنزلني فيها رغمًا
عني وغادر دون أن يعلن عن موعد العودة.
عشرون عامًا من التيه داخل دهاليز المحطَّة الضيِّقة، أفترشُ رصيفها الصاحب الذي
يعجُّ بالمنسيين مثلي، أتمنى لحظة هدوء أختلي فيها وحدي "خلوة شرعية" حيث الحبيب
مع من لا يشاركهم أحد.
يا الله كم هي أحلام المنسيين بسيطةً كـرغيف خبز، معقدة كتحرير القدس.
أندكر لحظة وصولي المحطَّة عندما نظرت إلى الساعة التي تعنلي بوابتها، وهي لا
تشبه أيَّة ساعة، تشير عقاربُها الثلاثة إلى الأيام والأشهر والسنين، وتتحرك ببطءٍ شديد.
وضعت حقائب الصبر والثبات بجانب أحد المقاعد واستلقيت عليه، غفوتُ ورحتُ أنقلب
ذات اليمين وذات الشمال، صحت لهنيهةً بعد عدة ساعاتٍ، سألت من كان في القرب،
هل مرَّ قطار الحياة من جديد؟ أجاب بنعم وأضاف:

صعد على متنه نفرٌ كانوا ينتظرون منذ زمنٍ وانطلق.
ماذا عني وعنك، وعن باقي المنسيين، كيف حصل هذا؟ ولماذا لم يوقظني أحد؟
إنها مشيئةُ الله، كان الردُّ.
عدت إلى قلبي ودموع القلبِ تحرقني.
رأيت في المنام ما يؤنس وحشتي:
قطارُ الحياةِ عائدٌ من جديد، منطلقًا من محطة العزة، وهأنذا ألمحُه من بعيدٍ يقترب
ويقترب ويقترب أكثر.
أيقظني من حلمي الجميل ضجيجُ المحطة، نظرتُ إلى الساعة التي كانت تشير عقاربها
إلى الثامنة مساءً! وبقي لها أربع ساعات حتى تعود إلى العد من جديد!
دعوتُ الله أن يصل القطار قبل تمام الساعةِ القادمة، وأن أكون من ضمن قائمة
المغادرين.

٣٤. صفحة من الماضي

وأنا جالس على أحد مقاعد الانتظار في محطة النسيان أنتظر قطار العودة منذ عشرين عاما
فإذا بصاحب "كشك" المحطة يناديني للردِّ على محادثة، كان على الجانب الآخر أحدُ أخواني
يطمئنوني بقرب اللقاء، فاستبشرتُ خيرا، وأخذتُ أعدُّ الأيام، وأطوي صفحاتٍ من التاريخ الممتدَّ،
وأنفض الغبارَ عن أشيائي، استعدادًا للرحيلِ واللقاءِ الموعد.

مرَّت الأيام، تبعثها الشهورُ، ودخلت السنون تسير على سكة الحديد، وما زلت أسير معها وأنا
أسير!

وإذا بي بعد هذا المسير ألتقيني بين ثنايا القدس، ومن حولي ركامٌ من الأحداث استُدعيت من
عمق التاريخ لكي تشاطرنِي الذكرى، يا هل ترى أهدأ الذي تمَّ وعدي به؟

لو لم يأتِ ولم ألتقِ به!

لماذا أيقظتم الذكريات في محطة النسيان؟

في صحيفة القدس قبل عشرين عام؟!!

٣٥. معادن

لا تخدعك المظاهر في الحكم على الرجال، فما هي إلا قشور تختفي من تحتها مناجم من المعادن، فيها الثمين والأصيل، ومنها الرخيص والخسيس، الرجال معادن، لا تكشفها إلا المحن.

٣٦. إلى ناقدتي

هي ردُّ على أخٍ علق على إحدى كتاباتي بعبارة (مصدق حالو) فكتبت "عندما يعجز الجسد عن الفعل، تنفجر الكلمات في فضاء العقل باحثةً عن رقعة ترسو عليها..
"إلى ناقدتي أقول: أنا لست مصدقاً لنفسي، ولا حتى أراها، فليس لي سواك مرآة أراني فيها، بدون خدوش، مع احترامي لك، ماذا كنت فاعلاً مكاني لحظة ذلك الانفجار؟
هل أتركه يقتل داخلي؟ أم أحبيبه على ورقي، أرجوك أوقد شمعة بدل أن تلعن الظلام أو دعني أرتحل من ألمي إلى ألمي، فأنا لا أملك سوى قلمي.

٣٧. انطوائي يعيش في الظل

تخلَّ عنه ولو لمرةٍ لكي تكتشفَ أن في هذا العالم ما يستحقُّ المغامرة، وأن ما وراء الظل حياة غير التي تعيشها، اكتشفها، واترك بصمتك فيها حتى لا تغادرها من هامشها.

٣٨. البصر والبصيرة

باستطاعة الإنسان العيش إذا فقد البصر، لكنه سيفقد الحياة وهو على قيدها إذا فقد البصيرة.

٣٩. الأنانية

من يحيا لنفسه يموت كما تموت القواصي من الغنم، مهما بلغ الإنسان من الجمال؛ إذا وقع في حب نفسه؛ سيجعل منه ذلك أكثر مخلوقات الدنيا بشاعةً، إنها مستتقٌّ شديد الننتة، فقطعةً منه تعكر أكثر النفوس صفاءً، ما إن يقترب منه أحدٌ حتى يسارع في البعد عنه، تفوح منه رائحة الأنا.

٤٠. غزوة الفراشات

ذات صباح إلى عالمنا تسللت فراشات تتستر بما تيسر من الغيوم، باحثةً عن مأوى يحميها من المطر.

فرح المقيمون بالقدوم، فاضحين تسترُّها بالابتهاج بها وبملاحقتها بالنظر، شيئاً فشيئاً
بدأت الغيوم بالتلاشي، وبدأ معها شروق الشمس في أعقاب ليلةٍ غاب فيها ضوء القمر،
في مشهدٍ امتزجت فيه خيوطُ الشمسِ مع المطر، زينت الفراشات جدران المعتقل.
(عزت فراشات سجن رامون الصحراوي ذات صباح مما أثار وجدان الكاتب)

٤١. أحجية

أعربي سمعك وقلبك يا مواطن.
إنها سهلةٌ، إنها حولك ولا ترى منها شيء، أنت فيها مواطنٌ بلا وطن، يعيش تحت
سيادتها ولا سيادة لها، تحملُ هويتها ولا هويةً لها، حدودها بلا حدود، مجراها على ورق،
وسماؤها للمطر لا للطيران فيها.
هل عرفتها؟! هل عرفتها!؟

تلميح.. إنها كالذي يسير بلا أقدامٍ، ويسبح بلا ماءٍ، ويتنفس بلا هواء، هل عرفتها!؟
تصريح. إنها دولة الورق، دولة بلا دولة
حقيقة. ليس بالأوراق تستردُّ الأوطان، ولا بالسؤال تعادُ الحقوق، إنما بالدم والروح توهب
الحياة، وبالحق والقوة، تنتزع الحرية.

٤٢. أحزاب العصر

بلاد المؤامرات وفرعون مصر مع بلاد أحزاب الأمس، جمعهم خطرٌ يُداهم بلاد العُرب،
كرامة وحرية تطالب بها الشعوب العربية، وباءٌ يجب محاصرته قبل أن يتفشى ويقتل
الروح الوطنية، ويكشف عنها غطاء الشرعية.
هذا ما تعاهدوا وكتبوه في أخبارهم السرية..
نبحث عن مصدر الوباء ونحاصره للقضاء عليه، اقترح اثنان ممن يرتدون الجلابية!
غزة رأس الأفعى، أجب فرعون مصر
إذن اضرب حصارك، واحفر خندقك، واستعن ببني العمومة! والسلطة الوطنية.
اقطع عن القطاع الإمداد، ولا تخشى الإنفاق على الأنفاق، سنمدك بالنفط والعملية
الأجنبية.

مر على الحصار كذا وكذا بالرغم من...، لكن دون جدوى، فالقطاع حاصر حصاره
بالصبر والثبات، وما زالت غزة تنتفس كرامةً وحرية.

٤٣. الثور الأبيض

منذ سنين الفتح، سنين سايك بيك، والوحش يحوم حول القطيع، يزرع بينهم الفرقة، يخلق
الفوضى، حتى استطاع التفرّد بالثور الأبيض، والذي كان المفضل لارتدائه قلادةً من الذهب
الأسود تزيد الوحش قوةً عند ابتلاعها؟ حدث هذا في وقتٍ كان فيه باقي القطيع يمارس هوايته
في النوم العميق، أحدث سقوط الثور ضجةً أزعجت القطيع لهنيهةً، ثم عاد لسباته، وهو في ذلك
يحبسب أنه ناج، دعت جامعة الثيران بعقد القمة الدورية، خلال الاجتماع صرّح أحدهم محدّراً
باقي القطيع بأن الثور (مجنون)، ونسوا أن الحكمة تؤخذ من أفواه المجانين، ها هم بعد أكل
الثور الأبيض يخوضون جلهم معركة صراع البقاء.

٤٤. شموع تنزف دماً

على دوار المنارة شموعٌ تحترق، وقودها دماءٌ تسيل في غزة، يا سادة النضال
اللسطيني، هل أصبح شعركم أصفر، وعيونكم زرقاء حتى تشعلوا الشموعَ مكان النيران؟
وكأنكم في بلاد الإسكندناف؟!
معذرة، نسيت أنكم أبناء حرام أو سلو!
تذكرت أنكم استبدلتم البندقية بكمنجة، تعزفون عليها مقطوعة الحرب على غزة، بلحن
الأمهات التّكالي، وأنات الجرحى.
تذكرتُ أنكم استبدلتم طبول الحرب بطبول الرقص على وقع المدافع.
ويحكم هل نفدت ذخيرة الدماء من وجوهكم؟!
سيكتب التاريخ من حروف من... أنكم خونة الدم.

٤٥. الصغار الكبار

في زمن اعتقدنا فيه أننا فقدنا جيلاً في متاهات النت وعالم الفضائيات.
فإذا بهذا الجيل يخرج من أحضان متاهات المستحيل.
بالرغم من تسخير الطاقات الجبارة، والإمكانات الهائلة؛ لإغراقه في بحر المغريات؛ إلا
أنه صعد من الأعماق، واعتلى أسوار القدس في خط دفاع أول عن الأقصى.

إنهم المقبلون المدبرون! يقبلون على الله، مدبرين عن الدنيا.
يطعنون ويُطعنون! يطعنون المحتل ويُطعنون في الظهر بخنجر الخيانة!

يا من زرعتم الرعب، وأسكنتم الخوف في الجوف، يا أيها الصغار الكبار؛ علموا المحتلَّ
معنى الانتصار.

٤٦. الهروب إلى الأحلام

أسماكٌ تتحرر كل يومٍ من شباك صياديهها، وتغوص هرباً في أعماق البحر؛ لتعيش
حريتها من جديد، في ذلك العالم البرزخي بحرٌ يجوبه سكانه من أقصاه إلى أقصاه، وفي
معجزة باستحالة اللقاء المحسوس، وكثرة العيش المنسوج بخيوط الوهم، وفي تناقض
الوهم مع هذا العالم يصبحُ أجمل من الواقع المرير الذي يذكرك في كلِّ حينٍ بأنك أسير.

٤٧. ناسا

كوكب دائم الظلمة، تأتيه على استحياء أنوار موسميةً في محاولات لحجز مكان لها،
لكن دون جدوى، بسبب الفوضى التي تسوده لانعدام الجاذبية عليه! لهذا الكوكب قمران
كباقي الكواكب، لكن بخلافهما على الدوام يعيش حالة الخوف الكامل! هل عرفتم ناسا؟
إنه إنسان ناقذٌ ساخطٌ يرى العالم بلون واحد.

٤٨. المحنة

تربةٌ خصبةٌ لاكتشاف ما هو مخزونٌ في حقول النفس.
يطوف فيها على السطح ما كان كامناً في الأعماق، يتطاير فيها الغبار الذي يستر
نفوسنا، تتساقط فيها كل خطوط الدفاع عن النفس، فتصبح عاريةً واضحةً بكلِّ تفاصيلها
الدقيقة التي كانت مغطاةً بلباس اللباقة والمجاملة وحسن السلوك، فينكشف المستور!
والمستور ليس بالضرورة ما ساءت به نفوسنا كما هو معهود عن المستور! وإنما ما
جهلناه عنها، خشيةً وطيبةً.

٤٩. الغيبوبة

منذ عقدين وأنا أعيش في غيبوبةٍ، حبيسٌ سريري، أشعر بما يدور حولي، أشارك الناس
أفراحهم وأتراحهم، أعيش بينهم ولا يلقي أحدٌ لي بالاً فأنا الحاضر الغائب، أظن في
الشارع المنسي، مبنى الصبر، العنبر الرابع، ورقم غرفتي يحمل معاناتي العشرين، ينتاب

الحنن بعض من حولي تجاهي، ولا أدري أمن المفروض أن يحزنوا عليّ أم أحزن أنا عليهم، فأنا غبت عن الدنيا لأقترب من الآخرة، فهي خيرٌ وأبقى، وهم بقوا في الكبد والشقاء، مرت عليّ أحداثٌ كثيرةٌ، منها ما تمنيت عيشها، ومنها ما حمدت الله على نعمة الغياب، اكتشفتُ في غيبوتي أشياء لم أكن لأكتشفها حتى وأنا في قمة استفاقتي، ففي الغيبوبة يتوج العقل سلطاناً وتسود الأحلام مملكته وتتضجُّ الأفكار، وتخمر في صناديق الذاكرة تنتظر موعدَ تحرُّرها، واكتشفت أيضاً كنوزاً لمن أراد البحث عنها، ومعاناة لا مثيلَ لها، أعيش المشهدَ الأخير منها كلَّ يومٍ من جديد، وها أنا على سريري أنمو وأكبر كالثمر على الشجر انتظر موسم قطفي.

٥٠. الساحات المبتلة

ربما يتساءل البعض لماذا جُلُّ خواطري يقطرُ منها الدمع؟ أنا لا أحب من الدمع إلا الذي يسيل من الفرح، أنا أكتب من هاجس المكان، وهمسات الأشياء التي تحيطني، فليعذرنني من ينتقدني، فأنا لا أعيش في بيتٍ شرفتهُ تطلُّ على مضيق البسفور حتى أتحدث عن مشاهدِهِ الجمالية الخيالية، ولا أعيش في سويسرا حتى أتحدث وأكتب عن الرفاهية، أنا أعيش محنةً تحمل معها كثيراً من معاني المعاناة، متعتي فيها هي تلك اللحظة التي لا أتألم فيها، وأستثمرها من ألفها إلى يائها، وأدعو الله أن يمد في عمري كالذي يعيش تحت تأثير المخدر، عند ذهاب مفعوله يعود الألم، حتى (متع الحياة) أو بديهياتها ممزوجة بالمنغصات أو النقصان، الطعام له في السجُن تشريعٌ يحرم جلده، والحلالُ منه ينالنا من أسمائه أكثر مما نأكل من حقيقته، الخبزُ تارةً يأتينا مصاباً بالجديري، وتارةً بالرعب، وأحيانا كرقعاتِ الشطرنج، وهو فاقد الإحساس بدون حياة، وإذا ألقبت نظرةً داخل غرفةٍ، قاطنوها نياماً، تشاهد أجنةً في بطون أفراسها، وإذا نظرت إلى الساحة تشاهد حجيجا في غير موسمها؟ مسيرين لا مخيرين، نعيش جُلَّ حياتنا في السجُن، أنشر هموم الحياة على حبال الصبر، وأخشى من انتهائها قبل أوانها، ألجأ إلى الله في محني، وليس إلى سواه أشكو، ثم الكتابة على ورقي الذي ما عاد يجفّ، شتاء لا يريد أن ينتهي، أدعو الله أن يتجاوز مرحلة الخريف بدون خوضها حتى لا تتساقط الأوراق، وأسأله الوصولَ إلى الربيع بسرعة البرق حتى تجف الساحات البيضاء، وتمتلئ زهوراً وفرشات.

٥١. تبدل الأزمان والمكان واحد

دخلت السّجن شبلاً، وأصبحتُ فيه الآن عمّاً لأشبالي، دخلته من قبل أن يولد سجاني، وُلِدَ وكبير وجاء حارساً على بابي.

معادلةٌ لم تكن في حسابي حتى في أسوأ أحلامي.

عاداتٌ ومصطلحاتٌ ومفاهيم عن الدنيا صاحبتني عند دخولي السّجن، كلما تبادلت الحديث عنها مع آخر القادمين اكتشفت أنها أصبحت من الماضي، ويبدو أنني سأتركها ورائي عند المغادرة في متحف الذاكرة.

تمضي الأيام، وتمر السنون، وما زال المصير مجهولاً. أسأل الله أن لا يأتي يوم يستبدل فيه وصف عمي بأبي وجدي!

٥٢. ما المنتظر؟؟

خمس سنوات عجاف لمن تبقى، وهي ذكرى وعيدٌ لمن نجى من جديد، يأتي في العام مرةً، ويأتي معه الوعدُ بالفرج القريب (أحزان قوم عند قومٍ أفراح)، والأعجب أن يشارك المفجوعُ السعيدَ فرحته، وفي ذلك قوة الإسلام ورابط الدعوة والنصير، خمس سنوات مرت وهي تشكّل لي الضلعَ الرابعَ من المربّع العشريني الذي بدأ يتفكك ويصير نحو المستطيل، خمس سنواتٍ ما قبلها شيء، وما بعدها أشياء، ما قبلها الوصول إلى الموت، في اليوم ألف مرةً، ما بعدها إخوة كانوا بالأمس، وأصبحوا اليوم يجوبون الأرض طولاً وعرضاً.

أمي تسألني عن موعد الزيارة، ولم يمضِ حينها على المحشر والمنشر (سوى يومين)، آآه يا أمي كم ألمني سؤالك هذا (أنت وبين والعالم وبين)، كم كنت صابرةً صبراً عجزت عن فهمه، بخلاف والدي الذي يمتاز بالشدة والصلابة، التي لانت مع نبأ بقائي في ساحة المحشر، أنتظر البعث!

عامان كاملان وبضعة أشهر عشتهم في حالة الهذيان، أصحو وأنام دون أن أنام!

هكذا هو الحال حتى جاء نبأ البشرى والتي كانت سببا في إعادتي إلى عالم الوعي،
الآن وبعد أن دخلنا في عامنا الثالث لإعادة الوعي، أقصد الأمل؛ أتساءل إلى متى؟
والله الذي لا إله إلا هو ما السؤال بدافع الحرص على الدنيا مع أحقيته، ولكن هو
السؤال الحاضر في كل مكان، فيا كلَّ الحكماء... ما المنتظر؟ موتنا أم موت أهلنا؟

٥٣. عودة الربيع

يا أوراق العمر المتبعثرة تحت هذه الأشجار الملعونة، تجمعي، فأغصانها بدأت تتكسر غصناً
بعد غصنٍ، يقولون إنَّ الربيع في الطريق، لكن بعض الأعاصير تؤخره، لكنه صامد يتمدد نحو
هذه الأرض القاحلة الجرداء، ذات الحجارة الصماء التي أهلكت الأجساد والأرواح، تعجّلي لقد
وصل العشب الأخضر، وبدأ الحصار، إنه يتسلق الأسوار، تعجلي أكثر لكي نلحق به، ونُصهر
فيه، فما عدت أطيع لون الخريف الذي اغتال الفصول منذ عصور واستقرّ.

٥٤. بناء المستقبل

الناس منشغلون من خلف الأسوار بالحياة وسنّتها، كلُّ يبني مستقبله بطريقته، وحسب قدراته، قيل
لنا عند دخول السّجن قد خسرتمُ مستقبلكم.

إذا كانت خسارتنا في خسارة مستقبلنا فنعمة الخسارة تلك التي تفنى، وما عند الله خيرٌ وأبقى.

ثم إننا نحن بناءً للمستقبل بطريقتنا، كلُّ حسب إيمانه واجتهاده، منا من يهدم، ومنا على الحياد
رسا، أما البناء فيتطاولون بالبنيان خارج هذه الأسوار، بل خارج هذا الكون الضيق على اتّساعه،
لا يتمنون استبدال الحال مع كائنٍ من كان خارج هذا المكان، ولو رجع بهم الزمان، بل إنك لا
تستطيع شراء لحظةٍ من عقود قضاها في سبيل الله مقابل الدنيا بأسرها.

إذن من منّا الخاسر؟ ومن هو أسير الزمان والمكان؟

٥٥. صراع مع الذات

استيقظت يوماً على وقع خطى طيفي وهو يهيمُ أن يغادر، سألته على استحياء:

- إلى أين؟

- إلى حيث اللامحدود؟

أجاب، سألت:

- لا أفهم، أفصح أكثر...
 - لقد سئمتُ المكوث في القبور وأريد أن أجتاز الحدود.
 - بعد هذه السنين والصبر الطويل ونحن على بعد خطوة من مسيرة الألف ميل، كيف لك أن تتركني؟ وهل تتفصل الروح عن الجسد؟
 - نعم؛ إذا مات الجسد غادرت الروح.
 - لم أمت، وها أنذا أتحدث إليك.
 - هذا هراء وأنت ميت في عداد الأحياء.
 - ميت في عداد الأحياء في سبيل الله، أفضل من حيٍّ في عداد الأنعام، ولكن لماذا الآن؟
- يبقى السؤال!!

- ما عدت أحتمل خيالك الذي يعيش روح المكان.
- وكيف لي أن أعيش التجدد والإبداع وأنا معزول عن الحياة.
- إذن ليتحرر أهدنا، دعني، أطلق لي العنان.
- لا تتعجل الرحيل، فلن تجد في الانتظار ما تركت قبل سنين، لقد تغيرت لغة العصر ومفرداته وعاداته، لم تعد أُمِّي وجاراتها على لفّ ورق العنب يلتقين، ولم يعد أبي وأصدقائه في شهر كانون على الكانون يجتمعون، ولم تعد جدتي تخبز على الطابون، ولم يعد أخوتي وأولاد عمي كما كانوا في السابق يتواصلون، وأصبح الصديق والرفيق لوحةً هي خير جليس في هذا الزمان، هل ما زلت تصر على الرحيل دون الخليل؟
- سأصبر وأعمل على عصر أفكارك الحزينة حتى النقطة الأخيرة التي تعتلي كلمة الحزن يا موج الطوفان النائم.

٥٦. رحماك ربي

على حلم الحرية أغفو وأصحو، على حلم لحظة أختلي بها مع نفسي، على قطعة خبزٍ من صنع أمي، على عود نعناعٍ من تربة بيتي، أحلم بصياح الديك يوقظني، قم صلِّ لربِّك، لا على ضجيج مكبر الصوت لا يراني إلا رقمًا يحصيني.

نفسي تتوق إلى طهر الحنون، وإلى كلِّ عود أخضر، إلى إشراقه شمسٍ تلمسني قبل أن تتشتت وتبتعث، وإلى غيابها للشمس ورؤية الشفق الأحمر، أشتاق إلى ليلٍ، إلى قمرٍ ونجوم تتلألأ، فأنا كلما نظرت إلى السماء أرى سياجا وأضواء تسطع.

أشفاق إلى شد الرجال إلى المسرى، إلى نسمة أستنشقتها قبل أن تتلوّث بقضبان سجنني، نقيّة من كل ذرّة تحملُ معها بواعثَ اختتافي، قيل "إن الجنة بدون ناس لا تداس"، وأنا أقولُ لا خلوة في السّجن، وهذا هو جحيمي.

مللت هذا الحال، مللت شعوري بالملل، وهذا لا يعني اليأس، فأنا راضٍ بقضاء ربي، والأمر ليس إلا أنني أريد أن أمارس إنسانيّتي، فالبيديهي في حياة البشر هو لديّ من الأمان، غير أنني لا أبالي، فأنا اخترت دربي بنفسني، ولا أريد إلا من الله أجري.

أحلم بأن أكون أنا كما أنا يجب أن أكون، أن أعود إلى رشدي، ولست بالمجنون، وإنما على درب الجمر أمشي، رحماك ربي...

٥٧. حوار الطرشان

- من الآن فصاعدًا تغيّرت قواعدُ اللعبة، ولم تعد لعبة، تغيّرت لغةُ الخطاب والحوار، ولغة المحنة، وأصبحنا دولةً.

- دولةٌ على الورق.

- يكفي أننا الآن بصحبة النّخبة.

- نعم؛ ولكن لا تتفوهون بأية كلمة، هذه كذبة!

- هكذا تنص القواعد الدولية، ويكفي أننا نلنا شرف المشاركة وحصلنا على الدولة الفخرية بالوثائق الرسمية.

- يا همي لالي يا همي لالي، والمعنى!؟!

- المعنى أننا نستطيع الآن أن نراقب كل الخروقات حتى دبيب النملة.

- والجدار الذي يسير كالقطار وتدوي معه كل الآمال ويحول الأحلام إلى أوهام!

- نراقبه.

- وهذا كل شيء!!

- على كل حال ماذا عن الحواجز التي قطعت الأوصال حتى بات الوطن أوطاناً؟

- نراقبها أيضاً.

- حقوق المواطن؟

- تكفلها كلُّ المواثيق الدوليّة.

- وماذا نصنع بهذه الكفالة!؟

- نراقبها إن خُرقت ومعنا صفة شرعية.

- الأسرى!؟

- لا نراقبُ الأموات.

- المسرى!؟

- نراقبُ كلَّ مداخله ومخارجه.

- وإذا دُنس؟

- نشجب، نستنكر، ليس فقط، بل إننا نستطيع الآن أن نهز الكيان في المحكمة الدوليّة.

-اللاجئون!؟

- خارج التغطية.

-الحدود!؟

- جميعها مراقبةً وتحت السيطرة.

-المغتصبات!؟

- الشرعيّة أم غير الشرعيّة!؟ نعم؛ نحن نعترف بالدولة العبرية.

-منذ متى يتخلى الإنسان عن نصفه!؟

- هاه هاااه.

- وهل ترضى أن تكون مطيئة؟!..

- لا تقل مطيئة، وإنما عطية.

-وماذا عن سلاح الدولة؟!..

- منزوع ونراقب غيره...

-الجيش؟!..

- يسنُ السيف ويعدُّ العدة.

-المياه؟!..

- عليكم بصلاة الاستسقاء.

-سنصلي، ولكن عليكم وعلى دولتكم بأربع تكبيرات.

- لماذا هذا الغضب؟!..

-من دولة الورق